المورد

مجلة تراثية فصلية محكمة

WWW.ATTAWEEL.COM

أسد الطويل

رحلة البرتغالي تاكسيرا الى العراق في القرن السابع عشر بقلم ساراسيرايت

ترجمة
فؤاد قزانجي
بغداد

يتفق البرتغالي (بيدرو تاكسيرا) من اعماق قلبه، مع معاصره الانكليزي فينس موريسون اول اوربي زار العراق، في القول الآتي:

«ماحلى المياه الجارية، بينما البرك الراكدة نتنة، خُلِقَ الناس كي ينتقلوا كالطيور المحلقة».

نعم، يتفق تاكسيرا نصاً وروحاً مع هذا التعقيب.. فالمياه الراكدة في الابار المالحة خلال الارتحال، تكون نتنة.. نعم ان اناساً امثال تاكسيرا وموريسون قد خُلقوا للتجوال ولاسيما في القرنين السادس عشر والسابع عشر.

كان هنالك احساس بالمخاطرة وراء تلك الرحلات التي قام بها الرجال عبر البحار والقارات، وهي التي تعبر عن رغبة تملكتهم للاتصال المباشر بالشرق. ان عالِماً مثل فرانسيس بيكون قد يطرى منافع السفر نظرياً، ولكن جوالين امثال موريسون وتاكسيرا هم الذين يشدون الرحال فعلاً.

كان تاكسيرا برتغالياً، سافر الى (غوا)[1] في عام ١٥٨٠ وكانت مهنته الطبابة الا ان عمله في غالب الاحيان كان يتركز في تجارة الاحجار الكريمة، حيث كان تجار المجوهرات من الاوربيين، مطلوبين كثيراً في البلاطات الشرقية، يضاف الى ذلك، كان تاكسيرا محباً للاسفار، فقد زار سيلان (سري لانكا) في عام ١٥٨٨، واستقر في ميناء هرمز مدة من الزمن خلال عام ١٥٩٠، ثم قام برحلة حول العالم ثم عاد الى (غوا) بين الاعوام ١٦٠٠ - ١٦٠٣، وترك بعدها مذكرات موجزة عن رحلته. وعندما اشتد به الحنين الى الوطن في عام ١٦٠٤ غيّر رغبته في الطريق - وربما كان ذلك من جرّاء ارهاق السفر بالبحر - الى الطريق الاقصر لاوربا وذلك عبر بلاد الرافدين.

كانت يوميات تاكسيرا عن رحلته هذه، اول تسجيل لشخص اوربي عن عبور الصحراء لذلك اعتبرت دليلاً عملياً لاي شخص يريد متابعة الرحلة في هذه المنطقة خطوةً خطوة. وكان هذا الطريق الذي يمر عبر صحراء الشام، يربط بلاد الرافدين بالبحر المتوسط ثقافياً وتجارياً منذ ثلاثة الآف سنة. وعندما قَدِمَ الاوربيون الى هذه البلاد في القرن السابع عشر، وجدوا انه اقصر الطرق بين اوربا وبين مصالحهم في الهند وفي الخليج العربي، والآن وعلى الرغم من الحدود والسياسات التي وضعت بعض الحواجز على الطريق، الا ان علامات الطريق القديمة - من بقايا المدن واطلال خانات السفر والآبار المالحة، ظلت على حالها.[2]

ولقد ازدهرت تجارة القوافل عبر الصحراء في فترات الاستقرار النسبي خلال القرنين الميلاديين الثاني والثالث، وكذلك في اوج ظهور الامبراطوريتين الاموية والعباسية في الفترة الممتدة بين القرنين الثامن والتاسع. وبالنسبة الى تاكسيرا فأن اجتياز الصحراء تعني التخلص من حياة الحَذَر التي خلفها الغزو العثماني للبلاد الذي كانت ذروته احتلال بغداد في عام ١٥٣٤.

WWW.ATTAWEEL.COM

وقد شجع العثمانيون استخدام هذا الطريق بدلاً من طريق راس الرجاء الصالح الذي كان يبحر فيه المغامرون من التجار الاوربيين.

وقد غادر تاكسيرا ميناء (غوا) في التاسع من شهر شباط عام ١٦٠٤. وكانت رحلته حتىٰ الخليج العربي غير حافلة، وقد وصل في نهاية تموز. كانت اشهر الصيف اكثر الشهور ازدحاماً بالتجارة في مدينة البصرة، وذلك لهبوب الرياح المواتية التي لم تأت بتاكسيرا حسب، بل جلبت معه تجاراً من الهند وباعة اللآلي من البحرين.

وفي البصرة، لم يجد تاكسيرا اية ابنية مشهودة بل وجدها مدينة ذات سور ضخم وبيوت مبنية بالاجر وبعض الحمامات العامة اللائقة التي تقدم خدمات طيبة حيث تستقبل الناس بعد عناء السفر. ويشار علىٰ الاوربيين عادة بارتياد تلك الحمامات، ليذكرونهم بالخدمة السيئة التي يلقونها في حمامات اوطانهم. كانت الحمامات مكاناً مرغوباً باعثاً علىٰ الاثارة، تزدهر في البصرة لكونها ملتقىٰ الطرق بالنسبة للعراق والخليج العربي والجزيرة العربية وايران. اما صادرات البصرة الاساسية فهي التمور، الغذاء الرئيسي الذي كان يرسل الىٰ جميع انحاء الخليج، وكذلك الحال بالنسبة الىٰ العديد من انواع الحبوب والخضروات. وهناك تجارة مربحة اخرى مع الهند وفارس، هي تجارة الخيول. كانت البصرة قد تخلصت من اثار الحرب التي جرت بين الفرس والعثمانيين وانتهت بسيطرة الاتراك. وكانت الحامية العثمانية المؤلفة من ثلاثة الآف جندي، تمول من وارد رسوم الكمرك الثقيلة. وعلىٰ اية حال، فقد كان وجود العديد من العقارب ذات الاحجام الكبيرة، مثار شكوى تاكسيرا.

كان تاكسيرا يرجو الوصول الىٰ بغداد عن طريق نهر دجلة، غير ان ذلك لايتيسر الا في فصل الشتاء. فقد تستغرق الرحلة في الصيف ثلاثة اشهر، حيث يكون دجلة ضيقاً والقاطنين علىٰ ضفافه (المتسمين بالعنف) قريبين جداً، بالاضافة الىٰ ان المسافة ستكون ضعف طريق البر بسبب تعرج النهر. وهكذا اختار طريق البر، علىٰ الرغم من تعذّر ايجاد قافلة يلتحق بها. وعلىٰ كلٍ فقد وافق اخيرا «الباشي» او رئيس القافلة ان يضمه اليها مع فراشه ومتاعه وان يُزوِّده بدابةٍ يركبها «مع قليل من الطعام الرديء الذي يقدم في ساعات غير مناسبة» الا ان تاكسيرا كان يضيف الىٰ ذلك بعض انواع من (البسكويت) والفواكه المعلبة وخاصة مربى السفرجل، وبالبرتغالية مارميلو. (واستطيع ان اشهد علىٰ مدىٰ قيمته في رحلة الصحراء وعلىٰ تمتع «الباشي» بتناوله ايضاً) بالاضافة الىٰ ذلك فقد اخذ معه ثلاثة اكياس من صبغ النيلة لتغطية اجور سفرته التي كانت اكثر اماناً مما لو حمل ثمنها معه.

تجمعت القافلة في الثاني من ايلول في خلاء باطراف المدينة قافلة «صغيرة» مؤلفة من (١٥٠٠) جملاً و (٩٥) حماراً و (٦٠) تابعاً مسلحاً. وكانت الحرارة لاتزال شديدة بحيث يسهل فيها تعكير الامزجة. فاليوم الاعتيادي يبدأ قبل الفجر، لذلك ساروا حتىٰ الظهيرة، ثم توقفوا عند ارتفاع درجة الحرارة في منتصف النهار ثم تابعوا السير عند الرابعة بعد الظهر تقريباً. كانت الآبار المالحة قذرة، وفي احدىٰ هذه الآبار وجدوا افعىٰ ميتة. وكان الامر بالنسبة الىٰ الدواب اكثر سوءاً، ففي يوم واحد نفقت خمسة جمال فتم نحرها وأُكل لحمها من قبل مرافقي القافلة، بينما لم يستطع تاكسيرا واصدقاؤه ان يشاركوهم في تناول هذا الطعام.

كانت القافلة تنتقل بصعوبة من بئر الىٰ اخرىٰ، ومن ثم كان علىٰ اصحابها ان يحترسوا من اللصوص. وعندما خيّموا في المساء «تخندقنا بشكل واضعين احمال المتاع والجمال والدواب في الوسط، وكانت جميع اسلحتنا علىٰ اهبة الاستعداد». وقد لاحظ تاكسيرا ان احد الحماة المأجورين ضمن القافلة هو من بين ابناء العشائر التي اعتادت السلب. وابتعد الحارس الخلفي للقافلة عنها خلسة، وراح يغني ليرفع من معنوياته. ولم يكن تاكسيرا من مثيري الفزع، غير انه لم يكن للادارة العثمانية من سلطة في خارج المدن ـ الا ماندر ـ كما كانت تسود المناطق الصحراوية شبكة من العلاقات والصراعات العشائرية بحيث لاتدع مجالاً للاغراب مهما اتخذوا من احتياطات لتأمين حمايتهم من قبل احدىٰ العشائر، اذ لابد ان يتعرضوا الىٰ الاعتداء من قبل عشيرة اخرى غيرها. ولذلك كان يتعذر عليهم السفر بدون تلك الحماية. وقد حذّر تاكسيرا من وجود اشخاص آخرين مع القافلة يحاولون سلب او قتل الاوربيين الذين يعتبرونهم اثرياء.

حينما يتعذر علىٰ القوافل ان تحط رحالها في بقعة ما بالصحراء فانها تخيم في خانات القوافل التي كانت في الغالب، وقفاً خيرياً اوقفه اغنياء المسلمين. فالخان الكبير يتسع لما مجموعه اربعمائة شخص مع حاجاتهم. والخانات شأنها شأن الفنادق ذات مستويات مختلفة، فأحدها يقع بالقرب من مدينة

النجف ـ مرقد الامام علي (ر) ـ وكان في وقت ما فسيحاً فخماً، ولكن عندما رآه تاكسيرا وجده متسخاً وارضيته ليست مستوية تتناثر فوقها الاحجار حتىٰ بدا له غير صالح للايواء.

كان تاكسيرا واهناً متعباً، وكان اكثر مايحتاج اليه ليلة كاملة من النوم، وكان طعامه مؤلف من التمر واللبن الرائب والماء، اذ كان قد اتى علىٰ (البسكويت) الذي يحمله ولم تكن هناك وسيلة لعلاج هذه الحالة سوىٰ الصبر، الشيء الاكثر ضرورة والذي يتسلح به الانسان في مثل هذه الرحلة. مهما كان ذلك القول صحيحاً او كان تعبيراً عن رباطة الجأش.

وقد حصل اصحاب القافلة علىٰ راحتهم بقضاء اربعة ايام في النجف. هذه المدينة الدينية المكرسة لذكرىٰ ابن عم الرسول (ص)، الامام علي (ر) الذي قتل في الكوفة التي تبعد بضعة كيلومترات شمالاً، ولايسمح لغير المسلمين بالسكنىٰ في هذه المدينة. ان مسجدها الرائع الذي يضم رفاة الامام علي (ر) كان اقل روعة عندما رآه تاكسيرا، ولم يُسمح له بالدخول اليه.(٣) اما مدينة كربلاء التي تبعد قليلاً عن النجف، فتبدو اكثر ازدهاراً وان كانت معادية للغرباء. وقد دُهش تاكسيرا لوفرة مياه الشرب فيها وكانت تُقدَّم مجاناً في الشوارع، كما يفعل كثير من المسلمين لأرواء المسافرين.

كان رئيس القافلة قد تزوج في كربلاء وقد دعا تاكسيرا الىٰ حفل الزفاف. ولوحظت رقة العرب بتناولهم الطعام بواسطة الملاعق.. وقد اعجب تاكسيرا بكرم الضيافة، وان كان اعجابه بطعامهم اقل من ذلك «فالعرب يبزون الشعوب الاخرى بما يقدمونه من طعام لاي شخص يفد اليهم او يمر بهم. وبعد انتهاء اسبوع الاحتفال بالزواج استأنفنا السفر، يتابنا خوف شديد من اللصوص. وقد بدت لنا الارض الآن اكثر خصوبة والطقس اشد احتمالاً، والخانات اتم راحة ولاسيما ذلك القريب من اطلال بابل، والذي شيدته سيدة تركية تقرباً لله».

بعد مرور خمسة اسابيع علىٰ مغادرتنا البصرة، وصلت القافلة الىٰ بغداد. فاذا بهذه المدينة اصغر حجماً من البصرة واقل تأثيراً، ورغم خلوها من الابنية الحجرية الضخمة فقد كانت تشابه اية مدينة اوروبية في ذلك الحين.. وحيث انها واقعة بين مفترق الطرق، فان الناس يفدون اليها وتلتقي فيها تجارتهم القادمة من اطراف الشرق الاوسط الاربعة. كان الطعام فيها جيداً، بالقياس الىٰ رجل برتغالي جائع، ولاسيما السمك النهري «ذو الطعم اللذيذ. اما القهوة التي كانت ساخنة جداً وداكنة وبدون طعم» فان تاكسيرا لم يكن شغوفاً بها علىٰ الرغم من الفوائد التي عُزيت اليها. حيث كانت ترتشف بتلذذ في المقاهي الممتدة علىٰ شاطيء دجلة حيث يلتقي الناس فيها للتحدث والتسلية وفق التقاليد السائدة هناك. وشاهد تاكسيرا في بعضها غلمان رشيقين وموسيقىٰ تقليدية مؤثرة.(٤) كما لاحظ وجود جماعات من اليهود والعجم، ويزعم بعض اليهود انهم عاشوا في هذه البلاد منذ السبي البابلي. ويمتاز البغداديون في الحقيقة، بالنظافة ودماثة الخلق فضلاً عن ارتدائهم الملابس النضرة. اما المدينة فكانت تتمتع بجو هادىء ونسيم عليل.

كانت (حلب) المحطة الثانية التي تتطلب اختراق الصحراء، والسير خلال طريق معلوم ومطروق مع تجنب الاقتراب من نهر الفرات حيث تُغمر شاطئيه عما قريب بمطر الشتاء، كما ان القاطنين هنالك لايقلون عداوة عن الذين وجدوا في الجنوب.

ان اربعة قوافل تجارية، اثنتان في كل اتجاه، تروح وتغدو في كل عام بين بغداد وحلب. وتضم كل قافلة مايقارب الفاً من الدواب، وان معظم الاوربيين الذين يسافرون بين هاتين المدينتين يستخدمون احدى تلك القوافل.

وعلىٰ اية حال، كانت التحضيرات بطيئة، بينما كان تاكسيرا شديد التوق للعودة الىٰ الوطن. وقد ضمت القافلة بضعة تجار اوربيين من بينهم اثنان من مدينة البندقية الايطالية (كان البندقيون لايزالون التجار الرئيسيون في تلك البقاع من العالم) بالاضافة الىٰ برتغالي متعب من البصرة الذي اسهم في تحضيرات القافلة، فلكل عشرة جمال محملة بالبضائع، ينبغي اضافة جمل آخر محمل بالامتعة. اما القافلة المتجهة غرباً فينبغي تحميلها بصبغة النيلة والصمغ والجوز (لاستخدامها في الدباغة وصناعة الحبر) وكذلك التمور والتوابل والاقمشة الفاخرة. وكان الحصول علىٰ الطعام خلال الرحلة، امر نادر كالماء وعليه يجب ان يتهيأ لها المسافر مُسبقاً.

كان عليهم انتظار الاخبار الواردة من حلب قبل الشروع في الرحلة. وبعد ان جاءت هذه الاخبار ووصلت بعض الرسائل من حلب، قاطعة طريق الصحراء الذي كان يستعمل للبريد السريع بشكل مفضل علىٰ طريق البحر حتىٰ عام ١٦٠٥، وهي

السنة التي وصل فيها تاكسيرا الى بلاده. وهكذا جاءت الاشارة في الثاني عشر من كانون الاول عام ١٦٠٤ لتحرك القافلة التي كانت تضم (١٣٠) جملاً و(٧٥) حماراً، وقد نصح تاكسيرا بالسفر في مهد مغطىً ومعلّق على احد جوانب الجمل، الذي يفترض ان يعلوه عدلان. ولم يتشكّى تاكسيرا من هذا الامر، اذ كان المكان دافئاً واكثر اماناً من ركوب الحصان الذي قد يطمع البعض في سرقته. ولكن معظم المسافرين ابدوا انزعاجهم من فكرة استخدام المهد، كما لو كان الداخل فيه مصلوباً. وساروا في طريق يتقاطع مع الترع، ولاحظ تاكسيرا بأسى ان القنوات غير مستخدمة والاراضي غير المحروثة قد هطل عليها مطر غزير، ورغماً عن ذلك ظلت مياه الآبار مجوجة.

وقرب نهر الفرات الذي قطعوه عند مدينة (عانه) شاهد تاكسيرا الحقول والمزارع ونبات العترة. فاذا بهذه المدينة مزدهرة وتضم جماعات من الغرباء والمدهش حقاً عدم وجود سوق فيها تتيح للمسافر ان يتمون منها.

وكان عليهم ان يدفعوا ضريبة المرور الى امير المدينة بالاضافة الى «جزء مما يملكون» الى الحامية التركية. وهكذا ففي كل مدينة كانت تتكرر امثال هذه الضرائب. ولهذا السبب يفضل الاوربيون ارسال بضائعهم بطريق البحر. وهذه البضائع على نوعين، الفاخر، مثل الحرير وصبغ النيلة والتوابل، والثقيل، مثل المفص والجوز والتمور. وتجري المطالبة المشادة بتقديم الهدايا الى اتباع الامير، ولذلك كان هؤلاء يعرقلون اجراءات المرور للحصول على المزيد من الاتاوات، مما جعل اصحاب القافلة يتأخرون مدة ثلاثة اسابيع حتى ادركهم البرد والجوع، بالاضافة الى الابتزاز الذي تعرضوا اليه من قبل اهالي المدينة، والى خيبة الامل التي اصيبوا بها من جراء احتجازهم الطويل. ولذلك حمد الله تاكسيرا عند مغادرتهم المدينة.

اما الآن فان الرتابة والوحدة التي انتابتهم خلال اجتياز السهول المغطاة بالحصى قد اثقلت على اعصابهم على الرغم من ان عدم مشاهدتهم اي انسان، معناه انهم في امان اكيد. وقد فزع تاكسيرا مرة، لشدة الضجة التي اثيرت في القافلة حول من سيلهب، ومن الذي سيبقى، ومن الذي حانت نوبته للحراسة. «فالكل يجب ان يأخذوا دورهم فيها» كان الجو شديد البرودة وكانت المياه قد بدأت تتجمد في القِرَبْ التي تحمله.

وفي موضع يدعى (مسكنة) Sulchana قضوا خمسة ايام مكرهين. وهو مكان رديء على الرغم من انه مخصص لايواء المسافرين القادمين مع القوافل «وقد بقينا في حراسة مشددة يتملكنا الخوف لامن السكان القاطنين هناك بل من اولئك الذين يعيشون خارج المكان» وبعد مسيرة يوم واحد وصلوا قرية (طيبة) المشهورة بينابيع الكبريت الحارة ثم انطلقوا من هناك عبر الفلاة نحو مدينة حلب.

الهوامش

١ ـ هوا، ميناء في شبه القارة الهندية، ظل تحت سيطرة البرتغال منذ القرن السادس عشر وحتى استقلال الهند عام ١٩٤٨.

٢ ـ لم يبق من تلك المدن والخانات القديمة سوى بعض الآثار القديمة التي تعود الى عصور سابقة.

٣ ـ وقد وصف تاكسيرا مدينة النجف قائلاً: «دخلنا مدينة الأمام علي (ر) نهار السبت ١٨ أيلول ١٦٠٤، وقد كانت هذه المدينة كبيرة، فان دورها كانت قبل مايزيد على خمسين او سبعين سنة نحو ستة الآف او سبعة الآف دار. وتدل خرائب معظم هذه الدور انها كانت واسعة وجيدة البناء. اما اليوم فالدور المسكونة لاتزيد على خمسمائة وسكانها معظمهم فقراء... ان المدينة محاطة بسور ولكن ليه الثف فتحة، وهو مبني كالجامع والدور، بالآجر والطين. والنجف ليست على مجرى، ومياه آبارها اجاج، اما الماء العذب فهو من مجرى كان قد احدثه السلطان العثماني سليمان القانوني بفتح صدره من الفرات على بعد ثلاثة فراسخ من المدينة. وقد أنفق عليه مبالغ كبيرة مع مشاق. ولم نستطع الشرب من هذا الماء لقذارته. فقد حصل في المجرى مامنع جريانه، وهو بحاجة الى تطهير سنوياً.

ويشاهد في هذه الحاضرة خرائب اسواق معقودة كما هي العادة في المدن الشرقية، وبناء هذه الأسواق يدل على ماكان لهذه المدينة من مجد عريق. ان هذه الاراضي تابعة للترك اما سيدها فأمير عربي (الشيخ ناصر المهنا) يؤدي له الخراج. وفي العادة ان تكون في هذه المدينة حامية قوامها خمسون جندياً ولكن لم يكونوا فيها حين مكوثي» (انظر كتاب مباحث عراقية/القسم الثاني تأليف البحاثة يعقوب سركيس) ص ٣٢٥.

٤ ـ وقد وصف تاكسيرا احد هذه المقاهي، وهو مقهى حسن باشا قائلاً:

«وهذا الخندق هو عمل جديد احدثه في سنة ١٦٠١ الوالي حسن باشا. وقد انشأ السوق والخان والمقهى المعروفة جميعها بأسمه، وهي من الابنية النفيسة...» ثم قال:

«ومن الابنية العامة ـ كما قلت سابقاً ـ المقهى.. ويستخدم في المقهى غلمان ملاح، ملابسهم فاخرة لتقديم القهوة وقبض الدراهم. وهناك الموسيقى تعزف وغيرها من وسائل التسلية واللهو. والتردد الى هذا الموضع في القيظ اكثر مايكون ليلاً، اما في الشتاء فنهاراً. وهذا المقهى قريب من النهر (دجلة) وفيه نوافذ ورواشن تطل على النهر فتجعله متنزها لطيفاً جداً» (يعقوب سركيس/المصدر السابق ص ١٨٩.